

المبتشرون والمستشرقون

وموقفهم من الإسلام (*)

د. محمد البهي

مقدمة

إذا كان من دواعي استقرار الحكم الوطني في مصر الحديثة الثائرة عزل عملاء السياسة وإبعادهم عن الحياة السياسية - فإن من صالح قيادة الأمة، كشعب موحد الاتجاه، قوي في أحاسيسه المشتركة، أن ينحى عملاء التبشير والاستشراق من جوانب التوجيه العام سواء في الثقيف، أو النشر، أو الصحافة أو الإذاعة .

إن عملاء التبشير والاستشراق - وهم عملاء الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي - هم الذين دربتهم دعوة التبشير على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة وعلى التنديد والاستخفاف بها . وهم الذين وجههم كتاب الاستشراق إلى أن يصوغوا هذا الإنكار والتنديد والاستخفاف في صورة البحث، وعلى أساس من أسلوب الجدل والنقاش في الكتابة أو الإلقاء عن طريق المحاضرة أو الإذاعة .

إن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فكلهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغرض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية، وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة، والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية .

• فهناك الدعوة إلى:

- أن القرآن كتاب مسيحي يهودي نسخه محمد .

- وأن الإسلام دين مادي لا روحية فيه، يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة .

(*) عن كتاب: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي؛ الطبعة الخامسة - دار الفكر بيروت ١٩٧٠ (ص ص ٥١٩ - ٥٣٧).

- وأنه - أي الإسلام - يميل إلى الاعتداء والاعتيال ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين عامة .

- كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق في الملذات الدنيا .

• وهناك الدعوة إلى :

- أن الفلسفة العربية فكر يوناني ، كتب بأحرف عربية .

- وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم ، وبدلاً منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة ، كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضاً عن الأحرف العربية .

• وهناك الدعوة إلى :

- إحياء الفرعونية في مصر . والآشورية في العراق . والبربرية في شمال إفريقيا . والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان .

- وإلى تفضيل الفارسية - كلغة آرية - على العربية كلغة سامية .

- وإلى أن الذي حل أمارات الحياة الأدبية الجديدة في الشرق العربي في نهاية القرن التاسع عشر ، وكذا في الشرق الإسلامي ، وحل مظاهر الحضارة عامة - هم نصارى لبنان الذين تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الأميركيين في سوريا .

- وإلى أن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية في شمال إفريقيا والأندلس .

• وهناك الدعوة إلى :

- التنفير من حياة المسلمين الحاضرة ؛ لأنها حياة بدائية ذليلة .

- وإلى أن السبب في ذلك هو تعاليم الإسلام والتمسك بها .

والتبشير والاستشراق في ذلك سواء ، والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة « البحث » وادعى لبحثه « الطابع العلمي الأكاديمي » بينما بقيت دعوة التبشير في حدود مظاهر « العقلية العامة » وهي العقلية الشعبية .

استخدم الاستشراق : الكتاب . والمقال في المجلات العلمية ، وكرس التدريس في الجامعة ، والمناقشة في المؤتمرات « العلمية » العامة .

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء . كما سلك سبيل العمل « الخيري » الظاهري في المستشفيات ، ودور الضيافة

والملاجئ للكبار، ودور اليتامى واللقطاء . ولم يقصر التبشير في استخدام « النشر والطباعة » وعمل « الصحافة » في الوصول إلى غايته .

إن البلاد العربية والإسلامية في يقظتها الحالية تعثر في خطاها نحو التماسك الداخلي، ونحو تقوية العلاقات بينها، بسبب الرواسب التي تخلفت عن التبشير والاستشراق، وبسبب آخر له وزنه وأثره في هذا التعثر وهو « ضعف المواجهة » التي يلقاها في البلاد الإسلامية هذان العاملان القويان في تركيز الاستعمار، وبعثرة القوى الوطنية في كل بلد عربي وإسلامي .

والمؤسسات الإسلامية - على تعددها وتنوعها - لم تعرف تماماً حتى الآن « وضعية » التبشير والاستشراق في توجيه الشعوب العربية والإسلامية، حتى تحاول أن تلقاها، فضلاً عن أن يكون لقاءها إياها قوياً أو ضعيفاً .

١ - فالأزهر - وهو أكبر المؤسسات الإسلامية في الشرق العربي والإسلامي - لم يخرج برسالته كثيراً حتى الآن عن أن يكون ترديداً لتفكير القرون الوسطى في مواجهة بعضهم بعضاً كأحزاب وأصحاب مذاهب فقهية وكلامية أو شعوبية (سنة وشيعة) أو ترديداً لتفكير المتأخرين الذين سلبوا الإنسان أخص مقوماته في الدنيا وهي ميزة الحياة . ولكن الأمل كبير الآن في إصلاح الأزهر .

٢ - وجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، هي تقليد لجمعية الشبان المعروفة من قبل عند غيرنا في جانب، وابتعاد عنها في أهم جانب من جوانب رسالتها . تقلدها في ممارسة الرياضة ولكنها لا تقلدها في جعل الرياضة وسيلة من وسائل التربية والإيمان، كما تفعل جمعية الشبان الأخرى أما ما يلقي فيها من محاضرات، أو يعقد فيها من ندوات، فينقص هذه وتلك عنصر الجدية وحرارة الإيمان ...

٣ - وجمعية التعريف الدولي بالإسلام (التي تعقد اجتماعاتها بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة) هي جمعية طابعها شخصي، أكثر من أن يكون حلاً لرسالة وبعثاً لها، أو نشراً لمبادئها في بلاد العالم، كما هو المفهوم من اسمها وصفاتها .

٤ - ومعهد الدراسات الإسلامية (بالروضة بالقاهرة) معهد حديث النشأة لم يتميز اتجاهه بعد، هل هو علماني على نحو أسلوب الدراسة العلمانية في التراث الإسلامي التي أدخلها علماء التبشير والاستشراق في الجامعات المصرية، أم هو تقليدي على نحو ما يفعل الأزهر في طريقته .

★★★

إن رواسب التبشير والاستشراق التي أشرنا إليها فيما مضى لا تتمثل فقط في المؤسسات التبشيرية المختلفة الظاهرة في مصر والبلاد العربية والإسلامية . بل هناك أيضاً مؤسسات أخرى في مصر لا يرى منها التبشير وإن

كانت لا تحفي هدف هذا الاستشراق . ونذكر - على سبيل المثال لا الحصر - المؤسسات الآتية:

١ - المعهد الشرقي بدير الدومنيكان، بشارع مصنع الطرابيش .

٢ - ندوة الكتاب، بشارع سليمان باشا .

٣ - دار السلام، بكنيسة دار السلام بمصر القديمة .

٤ - المعهد الفرنسي بالمنيرة .

فكل هذه المؤسسات تخضع للاتجاه الكاثوليكي في بحث الإسلام وتراثه وتخضع كذلك للنفوذ الفرنسي . والذين يعاونونها من المصريين هم أصحاب الثقافة الفرنسية ممن درسوا في فرنسا الآداب الشرقية والثقافة الإسلامية، ويرعاها، كأب روجي، المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا .

والذين يعاونون هذه المؤسسات من المصريين المثقفين في فرنسا والدارسين للآداب الشرقية العربية أو للتراث الإسلامي الثقافي يزداد أثرهم كلما اتصل شأنهم واتصلت مشورتهم بتوجيه الآداب، أو الثقافة في مصر .

وتحت عنوان « إصدار سلسلة كتب عن تاريخ الدين الإسلامي » وتحت هذا العنوان كتبت جريدة الأخبار بتاريخ ١٥ أكتوبر من عام ١٩٥٧ : عن وضع مشروع لإصدار سلسلة من الكتب : بعضها مترجم عن كتب المستشرقين والبعض الآخر يؤلفه كتّاب مصريون عن تاريخ الدين الإسلامي والأطوار التي مرّ بها في عهود الاستعمار .

إنه من غير شك أن هناك من له نفوذ بين الذين يعتزمون إصدار هذه السلسلة وهو من أنصار اتجاه التبشير والاستشراق ويروج لرسالة التبشير والاستشراق وهي رسالة الاستعمار دون أن يكون في نفسه أي أثر للشعور بخطورة هذا الاتجاه . فنحن سنرى في الكلام عن الاستشراق . في هذا البحث، ما يؤكد أن هدف المستشرقين في كتبهم عامة وقاطبة هو التوهين للقيم الإسلامية، وتفتيت الشعوب العربية والإسلامية في علاقاتها وصلات بعضها ببعض .

أجهزة الدعوة والدراسات الإسلامية عليها إزاء التبشير والاستشراق :

أولاً : أن تساهم في تنقية الحياة المصرية والعربية والإسلامية من رواسب هذين العاملين فتقعد عملاءهما من حياة التوجيه في مصر في جوانبها المتعددة وتكون ذا صلة وثيقة بوزارة التربية والتعليم في الإشراف على حياة مصرية إسلامية أفضل في مدارس المبشرين - وهي المدارس الدينية التابعة للفاثيكان في طوابعها المختلفة، من فرنسية وإيطالية وأسبانية وألمانية وهلم جرا . . . ، وعلى صلة وثيقة بالصحافة ووزارة الثقافة والإرشاد القومي في

توجيه القلم والكتاب .

ثم عليها ثانياً: أن تكون مع المؤسسات التعليمية الإسلامية - كالأزهر - جهازاً قوياً يلقي به كتب المستشرقين، ويحوثهم في مجلاتهم ومؤتمراتهم، في الرد عليهم وشرح القيم الإسلامية، وتقوية أواصر القرى بين الشعوب العربية والإسلامية .

ثم عليها ثالثاً: أن تخرج للمسلمين عاجلاً في مشارق الأرض ومغاربها :

١ - « دائرة معارف إسلامية » يكتبها علماء مسلمون متمكنون في فهم التراث الإسلامي من جميع بلاد العالم الإسلامي، وتكون مرجعاً للجوانب الثقافية العديدة .

٢ - وأن تقرأ « ترجمة » في كل لغة من اللغات التي تترجم إليها القرآن فعلاً بعد مراجعتها مراجعة دقيقة، من علماء لهم سعة إطلاع في التفسير والعلوم الإسلامية .

٣ - وأن تخرج « قاموساً » للغة الإسلامية، على نمط القواميس العلمية الحديثة في الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والاقتصاد... يكون مرجعاً سريعاً لمعرفة المصطلحات الفقهية ومدلولاتها في المذاهب الفقهية المختلفة .

والفرق بينه وبين « دائرة المعارف الإسلامية » أن هذه لا تقصر موضوعاتها على الفقه، بل تعالج جوانب التراث الإسلامي كلها كموسوعة علمية عصرية . أما القاموس فمهمته التعريف في صورة مجلة سريعة، علمية منظمة بالفقه الإسلامي . والمسلم المعاصر، وبالأخص في البلاد التي تعرف اللغة العربية، في حاجة ماسة إلى مثل هذا القاموس .

٤ - وأن تصدر « مجلة » تتبع بحوث الاستشراق التي يوردها الغرب الصليبي للشرق الإسلامي في الوقت الحاضر، سواء في كتبه عن التراث الإسلامي أو في بحوث مجلاته العديدة التي تعنى بهذا التراث، وبوضعية المسلمين وتوجيههم . وحركة الغرب في توريده لهذه البحوث حركة ضخمة وسريعة، كما يرى من الدوريات التي تنشرها الجمعيات الاستشرافية في مختلف بقاع العالم بلغات مختلفة، ومن الكتب التي تصدرها دور الطباعة الكبيرة في عواصم أميركا الشمالية وإنجلترا وفرنسا . والبيان المرافق في هذا البحث يعطي صورة تقريبية ولكنها صورة مزعجة للموجهين في العالم الإسلامي .

وإذا ابتدأت أجهزة الدعوة والدراسات الإسلامية في مواجهة « الاستشراق » مواجهة سافرة - وليس هناك حتى اليوم أية مؤسسة إسلامية في العالم الإسلامي تقوم بهذا الدور - لأكثر من سبب فستظهر له سبل أخرى يرى لزماً عليه أن يسلكها كي يصل إلى هدفه وهو :

إعادة تقييم القيم الإسلامية في نفوس المسلمين، وفي نفوس الرأي العام العربي .

هدف التبشير

سنرى فيما بعد أن الاستشراق لون من ألوان التبشير لأم نفسه مع ظروف الحياة . وإذا كان الاستشراق نوعاً من أنواع التبشير فتعرّف هدف التبشير نفسه يعطينا بالتالي صورة عن هدف الاستشراق . ولن نحاول هنا أن نذكر شيئاً مستنتجاً من قراءة أو دراسة لهذا الموضوع، وإنما سندع النصوص الثابتة لزعماء المبشرين تعبر عن هذا الهدف :

يقول لورانس براون (Lawrance Brown) « إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً . أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلّون حينئذ بلا قوة ولا تأثير »^(١) .

ويفصح القس « كاهون سيمون » عن رغبة التبشير القوية في تفريق المسلمين التي عبر عنها « براون » فيما قبل ، بقوله : « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود، وتساعدتهم على التملص من السيطرة الأوروبية . ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً في كسر شوكة هذه الحركات . ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها »^(٢) .

فوحدة المسلمين إذن في نظر التبشير يجب أن تفتت وأن توهن ، ويجب أن يكون هدف التبشير هو التفرقة في توجيه المسلمين واتجاهاتهم . وللتبشير ، إذ يرى هدفه المباشر تفكيك المسلمين . يرى بالتالي درء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوروبية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين . وفي هذا المعنى يقول لورانس براون : « المخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام ، وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي حيويته . إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي »^(٣) .

وتقول مجلة العالم الإسلامي الانجليزية (The Muslim World) : « إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي . ولهذا الخوف أسباب منها : أن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عديداً ، بل دائماً في ازدياد واتساع ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً »^(٤) .

وهناك بجانب تفتيت وحدة المسلمين - كهدف للمبشرين - هدف آخر هو التنفيس عن الصليبية وعن الانهزامات التي مني بها الصليبيون طوال قرنين من الزمان أنفقوها في محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدي المسلمين المهمجين !! يقول اليسوعيون : « ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ؟ أو لم نرجع تحت راية

الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي ولنعيد في ظل العلم الفرنسي وباسم الكنيسة مملكة المسيح؟^(٥).

وبجانب هذا وذاك يرى المستشرق الألماني بيكر (Becker): « أن هناك عداً من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً منيعاً في وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها^(٦) ».

وإذن هدف التبشير هو تمكين الأوروبي المسيحي من البلاد الإسلامية. والأسباب التي ذكرها هؤلاء المبشرون هنا توصل جميعها إلى هذا الهدف. فسواء أكان التنفيس عن هزيمة الصليبية، أم الرغبة في الانتقام من الإسلام لأنه قام في القرون الوسطى في وجه المسيحية. أم توهين المسلمين وتمزيقهم في التوجيه والإتجاه - هو السبب المباشر في التبشير - فإن نتيجته حتماً وعلى أي وضع هي ما ذكرنا من تمكين الأوروبي المسيحي من المسلم الشرقي ومن وطنه.

وهنا يبدو واضحاً أن التبشير مقدمة أساسية للاستعمار الأوروبي، كما أنه سبب مباشر لتوهين قوة المسلمين. « ولقد كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها في بلاد الشرق لأنها تعدهم حلة لتجارتها وآرائها ولثقافتها إلى تلك البلاد. بل لقد كانت ثمة ما هو أعظم من هذا عندها: لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلاً على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسيط الأجنبي^(٧) ».

تصوير المبشرين للإسلام والمسلمين

وطريق التبشير لتوهين المسلمين، لم يكن الدعوة إلى المسيحية والعمل على ارتداد المسلمين إلى النصرانية مباشرة. وإنما كانت طريقة تشويه الإسلام، ومحاولة إضعاف قيمه، ثم تصوير المسلمين في وضعهم الحالي بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضاري في عصرنا الحاضر.

فالمنيسنيور كولي في كتابه « البحث عن الدين الحق »، يصوّر الإسلام على هذا النحو: « الإسلام: في القرن السابع للميلاد. برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب ».

لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه. وتساهل في أقدم قوانين الأخلاق.

ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب.

ووعد الذين يهلكون (يستشهدون في سبيل الله) في القتال بالاستمتاع الدائم بالم لذات (الجنة).

وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وإسبانيا فريسة له ، حتى إيطاليا هددها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا .

لقد أصيبت المدينة .

ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول في الأكثر كلاب النصارى ..

« ولكن انظروا ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الإسلام المنتصر عند بوانيه (٧٥٢ م) ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ - ١٢٥٤ م) في سبيل الدين ، فتدجج أوروبا بالسلاح ، وتنجي النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب ، وانتصر الانجيل على القرآن ، وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة »^(٨) .

ويقول و. س. نلسون (W. S. Nelson) « وأخضع سيف الإسلام شعوب إفريقيا وآسيا شعباً بعد شعب »^(٩) .

هذا في وصف الإسلام ووصف مبادئه أما محمد رسوله فيقول عنه أدبسون (Addison) « محمد لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن في خياله منها إلا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به للعرب »^(١٠) .

وفي وصف المسلمين ، يقول هنري جيسب (Henry Jesups) - المبشر الأميركي - « المسلمون لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها قدرها ... إنهم لصوص ، وقتلة ومتأخرون ، وإن التبشير سيعمل على تمدنيهم »^(١١) . كما يقول ، في وصفهم ، جوليم (H. Guillmain) في كتابه « تاريخ فرنسا » : إن محمداً ، مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو . ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين (المسلمين) وبين النصارى ! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس : أسلموا أو موتوا ، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم .

« ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكننا مسلمين كالجزايريين والمراكشيين »^(١٢) .

وهكذا : المسلمون متأخرون ، ولصوص وقتلة .

وهكذا : رسولهم سارق ومحرف فيما سرق .

وهكذا : الإسلام دين السيف وليس دين الإيمان . هو دين مادي وليس ديناً روحياً لأنه يسمح لأتباعه بالفجور والسلب والقتل . هذا ما يصور به التبشير الإسلام والمؤمنين به والتابعين لرسوله . على أنه لم يفت المبشرين كذلك - بجانب تشويه الإسلام والمسلمين بغية توهينهم وإضعاف وحدتهم أن يثيروا للغاية نفسها

النزعات الشعبية، مثل الفرعونية في مصر، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقيا وهكذا...

سبل المبشرين إلى بلوغ غاياتهم

وتنوعت أساليب التبشير في توصيل هذا التصوير المشوّه للإسلام ورسوله والمسلمين، إلى أجيال المسلمين جيلاً بعد جيل منذ أن استقر في الشرق العربي والإسلامي. فكانت

- المدرسة - الكلية - الجامعة - الندوة - الرياضة - المنزل - الكتاب - الصحافة - المخيم - المستشفى - دار النشر والطباعة .

وإن من أشهر المؤسسات التعليمية في الشرق العربي جامعة القديس يوسف في لبنان، وهي جامعة بابوية كاثوليكية « وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية ».

والجامعة الأميركية ببيروت التي كانت من قبل تسمى « الكلية السورية الإنجيلية »، ثم كلية بيروت. وقد أنشئت في عام (١٨٦٥)، وهي جامعة بروتستانتية.

والكلية الأميركية بالقاهرة التي أصبحت فيما بعد « الجامعة الأميركية » وقد كان القصد من إنشائها. أن تكون قريبة من المركز الإسلامي الكبير وهو الجامع الأزهر.

وكلية روبرت في استنبول التي أصبحت تسمى « بالجامعة الأميركية » هناك .

والكلية الفرنسية في لاهور، وأسست في لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامي الفريد في تكوينه في شبه القارة الهندية . ومن المنشور الذي أصدرته الجامعة الأميركية في بيروت في عام (١٩٠٩)، ردّاً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة - يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها . ونص هذه المادة ما يلي :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية . وهم انشأوا المستشفى وجهازه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء؛ ليجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده . فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ... وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه »^(١٣).

كما أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة: « أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني، ولا لبث الأخلاق الحميدة، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور

المسيحي، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به»^(١٤).

وكما يستخدم المبشرون دور التعليم - بعد أن يموهوا بأسماها على الرأي العام للتبشير، يستخدمون كذلك الوسائل الأخرى التي أشرنا إليها هنا سابقاً، للغاية نفسها، وبالأخص الصحافة. فكتاب «التبشير والاستعمار» يذكر نقلاً عن مصادر للتبشير ما يلي:

« يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر، لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة في أكثر الأحيان أو بلا أجر في أحوال نادرة»^(١٥).

والمبشرون يسرون في تحقيق هدفهم وفق خطط معينة مدروسة، يجتمعون من أجلها بين الحين والحين. ولذلك نرى أنهم عقدوا عدة مؤتمرات لهذه الغاية:

مؤتمر القاهرة في عام (١٩٠٦). ومؤتمر بيروت في عام (١٩١١). ومؤتمر القدس في عام (١٩٢٤). ومؤتمر القدس في عام (١٩٣٥).

وفي كل مؤتمر من هذه المؤتمرات، تدرس المشروعات وتوضع الخطط، ثم يجري تنفيذها في سرية تامة وبهمة دائبة.

نشأة الاستشراق

يرجع تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك، غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تلق الضوء الكافي على الموضوع وإن أشارت إلى بعض المستشرقين كأفراد، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة «عهد الإصلاح الديني»، كما يشهد بذلك التاريخ في هولانده والدانمارك وغيرها^(١٦).

أسباب الاستشراق

والسبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق، هو سبب ديني في الدرجة الأولى. فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة. وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي فشعر المسيحيون: بروتستانت وكاثوليك، بحاجة ضاغطة لاعادة النظر في شروح كتبهم الدينية، ولحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح ومن هنا اتجهوا الى الدراسات العبرانية. وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالاسلامية؛ لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى وخاصة ما

كان منها متعلقاً بالجانب اللغوي. وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أدياناً ولغات وثقافات غير الاسلام وغير العربية^(١٧).

ومن جهة أخرى، رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الاسلامي. والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق. وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن «المسيحية» ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق. وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حايته، وزودهم بالمال والسلطان، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار.

وبجانب هذا وذاك، كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق: أسباب تجارية، وأسباب سياسية دبلوماسية، وأسباب شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهاهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لاشباع رغباتهم الخاصة في السفر أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم. ويبدو أن فريقاً من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى، أو دخلوه تخلصاً من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية. أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لدمتهم الدينية أمام إخوانهم في الدين، وتغطية لعجزهم الفكري، وأخيراً بحثاً عن لقمة العيش إذ إن التنافس في هذا المجال أقل منه في غيره من أبواب الرزق^(١٨).

وهناك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة. فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية - وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية، في نظرهم، هي مصدر الإسلام الأول، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية: فكرة أولاً ثم دولة ثانياً، هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعاً مكتوباً يؤيدها، غير أن الظروف العامة، والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي.

وقد تركزت أهداف الاستشراق، مع تنوعها، أخيراً في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة، وحلهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية.

ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التي يعدونها نصرانية؛ لأن أمم الغرب تدين بالنصرانية) ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على

الآداب العربية والإسلامية، وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام. وما غايتهم من ذلك إلا تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحلهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية^(١٩).

من مظاهر نشاط المستشرقين

حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل: ألفوا الكتب، وألفوا المحاضرات والدروس، و« بشروا » بالمسيحية بين المسلمين، وجعوا الأموال وأنشأوا الجمعيات وعقدوا المؤتمرات، وأصدروا الصحف، وسلوكوا كل مسلك ظنوه محققاً لأهدافهم.

وهذه نماذج من صور نشاطهم المتعدد الجوانب:

- في عام (١٨٨٧)، أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام (١٨٢٠)، وإصدار « المجلة الآسيوية ».

- وفي لندن، تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام (١٨٢٣)، وقبل أن يكون الملك ولي أمرها، وأصدرت « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ».

- وفي عام ١٨٤٢ أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم « الجمعية الشرقية الأميركية »، وفي العام نفسه، أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، كذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا وروسيا.

- ومن المجلات التي أصدرها المستشرقون الأمريكيون في هذا القرن، « مجلة جمعية الدراسات الشرقية »، وكانت تصدر في مدينة جامبير (Gambier) بولاية أوهايو (Ohio) ولها فروع في لندن وباريس وليزيغ، وتورونتو في كندا، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن، وطابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسي؛ وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية، وخاصة في باب الكتب.

- ويصدر المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر « مجلة شؤون الشرق الأوسط ». وكذلك « مجلة الشرق الأوسط »: وطابعها، على العموم، طابع الاستشراق السياسي كذلك.

وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر، هي مجلة « العالم الإسلامي » (The Muslim World)، أنشأها صموئيل زويمر (S. Zweimer) في سنة (١٩١١)، وتصدر الآن من هارتفورد (Hartford) بأمريكا، ورئيس تحريرها كنيث كراج (K. Cragg)؛ وطابع هذه المجلة تبشيري سافر.

وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة « العالم الإسلامي » في روحها واتجاهها العدائي التبشيري، واسمها أيضاً : (Le Monde Musulman) .

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار « دائرة المعارف الإسلامية » بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة، وقد بدأوا في الوقت الحاضر في إصدار طبعة جديدة تظهر في أجزاء، ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم، على ما فيها من خلط وتحريف وتمصّب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوي في مصر، والمجمع العلمي في دمشق والمجمع العلمي في بغداد .

ويعتمد المستشرقون - فيما يعتمدون - على عقد المؤتمرات العامة من وقت لآخر لتنظيم نشاطهم، وأول مؤتمر عقده كان في سنة (١٧٨٣) ، وما زالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم .

وفي العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء في الماضي من الإغداق على المستشرقين وحبس الأوقاف والمنح على من يعملون في حقل الاستشراق . واتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية، محاولين غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا « مستغربين » في حياتهم وتفكيرهم، وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية [انظر (ص ١١٤) من مجلة الإسلام (Al-Islam) الصادرة في ١٦ مارس / آذار سنة ١٩٥٨] .

الحواشي

- (١) في كتابه : الإسلام والارسابيات (Islam and Missions) (ص ٤٤ - ٤٨) .
- (٢) كتاب : التبشير والاستعمار (ص ٣٢) .
- (٣) في كتاب أصدره في عام ١٩٤٤ .
- (٤) عدد يونيو/حزيران سنة ١٩٣٠ ، تحت عنوان : الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي .
- (٥) التبشير والاستعمار ، [مرجع سابق] ، (ص ١١٧) .
- (٦) المرجع نفسه ، (ص ٥٠) .
- (٧) المرجع نفسه .

- (٨) طبع ١٩٢٨، (ص ٢٢٠)، وقد نال هذا الكتاب رضا البابا ليون الثالث عشر في سنة ١٨٨٧، وعاش في المدارس المسيحية في الشرق والغرب إلى اليوم.
- (٩) التبشير والاستعمار. [مرجع سابق]، (ص ٣٦).
- (١٠) المرجع نفسه، (ص ٣٧).
- (١١) المرجع نفسه.
- (١٢) تاريخ فرنسا؛ (ص ٨٠ - ٨١).
- (١٣) التبشير والاستعمار [مرجع سابق]، (ص ١٠٨).
- (١٤) المرجع نفسه، (ص ١٠٩).
- (١٥) المرجع نفسه، (ص ٢٠٧).
- (١٦) راجع الصفحات (٣، ٥٤، ٨٦، ٢٥٧، ٣٦٨) من المجلد الثالث الصادر في عام ١٩٢٣، من مجلة المجمع العلمي العربي. والصفحات (٦٤، ١٧٠، ٢٠٤، ٣٦٤، ٤١٦، ٤٤٢) من المجلد الرابع، الصادر في عام ١٩٢٤ من المجلة نفسها.
- (١٧) راجع المصدر السابق، وكتاب المستشرقون، لنجيب العتيقي، ومجلة الاسلام بالانجليزية (Al-Islam) (ص ١١٢) من عدد ١٥ فبراير/شباط سنة ١٩٥٨.
- (١٨) راجع الصفحات: ١٩ وما بعدها، ٣٨ وما بعدها: ٤٠ وما بعدها من كتاب (المستشرقون). وراجع: المجلدين الثالث والرابع من مجلة المجمع العلمي العربي لعامي (١٩٢٣ - ١٩٢٤) وراجع مجلة الاسلام بالانجليزية (Al-Islam) في أعدادها الصادرة في فبراير وأبريل ومارس ومايو من عام ١٩٥٨.
- (١٩) التبشير والاستعمار، [مرجع سابق]، (ص ١٧).